

الفصل السابع

المسيحية كدين مستقل

(أ) الإيمان المسيحي لم يستطع تجنب التأثيرات الهيلينية - التيارات اليوحاني - المقاومة اليهودية المسيحية للبولينية وللإوحانية - كيف غلبت هذه المقاومة على أمرها شيئاً فشيئاً - انفصال الإيمان عن الشريعة - انفصال الكنيسة عن المعبد - الموقف على أعتاب القرن الرابع .

(ب) المهديون الروماني - موضوعات الميتافيزيقا المدرسية - الحركة الفكرية في المجال الديني من القرن الأول إلى القرن الرابع - الديانة الرومانية الرسمية والعاطفة الدينية - الدفعة التي أتت من الشرق - التأليف الديني الفردي في القرن الثالث - كيف ظهرت المسيحية كدين شرق ، وكيف انجذبت إلى الفرد - المسيحية لا تقبل التأليف الديني ، ولكن في الظاهر فحسب - التقاء المسيحية بالفلسفة .

(ج) تأثير الثقافة الهيلينية بدفع الإيمان في اتجاهين مختلفين - اكتمال تحول المسيحية إلى فلسفة إلهامية - ازدهار الغنوصية - دور الفرق في تطور العقيدة - أثر الطقوس الوثنية .

(د) صورة المسيحية في بداية القرن الرابع - كيف أصبحت ديناً مستقلاً معادياً لليهودية - شروط الإيمان - كنيسة الكنائس - التعصب المسيحي .

(١)

عندما خضع بولس لقوى الواقع ، استطاع أن يطوع هذه القوى لعبقريته الفكرية : فقد كان سابقا إلى قبول فكرة انفصال المسيحية عن اليهودية ، ذلك الانفصال الذى أظهر سير الأحداث أن ليس منه بد ، ولكنه مهد له بإنشاء العقيدة المناسبة . ولم يكن الإيمان المسيحى على أى حال يستطيع تجنب تأثيرات البيئة الهيلينية متى خرج من حدود فلسطين . ولقد بينا فيما سبق كيف حدث ذلك قبل مجئ بولس . وكان من المحتم أن يطبق على هذا الإيمان ، فى العالم الإغريقى ، نفس أساليب التفسير التى أراد بها يهود الإسكندرية أن يوفقوا بها بين شريعة موسى وبين الفلسفة اللادينية . وتبع أحد الآسيويين المجهولين خطى فيلون فى هذا المجال ، ففرض فى مقدمة الإنجيل الرابع أن عيسى المسيح ظهر على الأرض ممثلا لـ « اللوغوس » ، أى كلمة الله ومبدأ الفعل لدى يهوه - حسب مدرسة الإسكندرية - وأنه يشارك الله فى خلوده^(١) . وكان هذا فرضاً يبلغ فى مفهومه مبلغاً هائلا من الخطورة ، ولا يعنى أقل من أن عيسى المصلوب ليس سوى ظاهرة مباشرة لله ، أى أنه - إذا أخذنا بتسلسل الفكر المنطقي - ليس سوى الله نفسه . وكان أيضا فرضاً يخرج عن نطاق التأدب الدينى بالنسبة إلى اليهود الذين لم يكونوا ليدركوا قط أن اللانهاية الإلهية - تلك التى

(١) ٤/١ : « ونحولت الكلمة إلى لحم ، وعاشت بيننا ، ورأينا مجدها ، مجداً كالذى يتخذه الابن الأوحد من أبيه » . والكلمة اليونانية « لوغوس » تترجم فى النصوص اللاحقة للتوراة بـ « الفعل » ، أو « الكلمة » .

لا يجسرون على النطق بوصف لها خشية الانحراف إلى تحديدها - يمكن أن تتجسم في الحدود الضيقة للجسد البشرى . ولكنه إلى جانب ذلك ، كان فرضاً سهل التوفيق بينه وبين نظرة بولس للمسيحية ، أو - بتعبير أدق هو فرض يتمى انتماء وثيقاً إلى اتجاهات هذه النظرة نفسها إذا أخذنا في الاعتبار ذلك التصريح الأماسى في كتابات الحوارى : « السيد هو الروح » ؛ كما كان فرضاً بالغ الإغراء بالنسبة إلى أهل اليونان ، ومنسجماً تمام الانسجام مع رغبات الإيمان العميقة ، التى لا تنفك تدفع بالمؤمنين إلى الازدياد من تمجيد شخصية عيسى ، فتحاول - ويكاد ذلك يكون بلا وعى - أن تقرها من الله .

ولم يقبل اليهود - المسيحيون برضاء تام كل هذه التبديلات والإضافات التى أريد فرضها على إيمان الحواريين الاثنى عشر ، وإن كانوا لم يدركوا ، بعد كل ماسوف يترتب عليها من نتائج ، ذلك أن الامتياز الرفيع الذى ظنوه مقصوراً عليهم امتياز « وراثه مملكة الله » ، كان لابد له من التلاشى والانهار بعد مشاركة كل هذه الجموع من الأتباع فيه ؛ ثم لأنهم كانوا يهوداً يزعمون البقاء على يهوديتهم ، حيث علموا علم اليقين أن أساتذهم كان يهودياً . فعارضو بولس معارضة قوية ، حتى بين رحاب الجامعات التى كان له الفضل فى إنشائها .

وحق بعد أن اعترف الحواريون الاثنى عشر به حوارياً مثلهم ، وأحنوا رؤوسهم ظاهرياً لكل ما طلبه من تنازلات لمصلحة الأتباع الجدد الذين اعتنقوا المسيحية على يديه ، حتى بعد هذا نراهم يستسلمون إلى ضروب من « التوبة » ، وضعته أحياناً فى مواقف حرجة . وأصدرت فرق المتعصبين للشريعة كتباً تهاجمه فى عنف . وإن رسائله إلى أهل كورينثيا وغلاطية - مهما بدا لنا ، إلى اليوم ، من غموض تفاصيلها لتشير فى مجملها إشارة واضحة إلى عداء هؤلاء القوم الذين لم

يكونوا ليرددوا في إظهاره للناس داعياً خارجاً عن الدين ، لو أستطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وبعض المؤلفات المتأخرة في التراث المسيحي - مثل الكتب المنسوبة إلى كليمان رومان الذى عاش في نهاية القرن الأول - تحمل آثاراً من هذه المشاحنات .

وإلى جانب ذلك أثارت النظريات اللاهوتية في المقدمة اليوحانية ، هي الأخرى ، معارضة عنيدة . إلا أنه كان من اليسير ، منذ السنين الأخيرة لجيل أصحاب عيسى ، أن يتنبأ الناس بالكفة الراجحة في ميزان قوى الدعوة المتصارعة ، بالنسبة إلى المستقبل .

فمنذ ذلك الحين ، في الواقع ، بدا واضحاً أن عودة « السيد » ، أى ظهوره على الأرض من جديد - تلك الظاهرة التى طال أمد انتظارها كثيراً - بدا واضحاً أنها قد تتأخر عدداً لا يمكن حسابه من السنين ، فأصبح الحديث عنها ، شيئاً فشيئاً ، لايشى غليلاً ، وبدأ مفهومها يخرج من دائرة حياة المؤمنين العملية ، وتضاءلت بالتدرج مكانتها في صدر إيمانهم . وعلى أى حال ، فإن صورة القيامة التى تضمنت ملامح هذه الظاهرة المستظرة ، لم تكن بالصورة التى تجذب الإغريق والرومان بالقدر الذى كانت تستهوى به اليهود . فعقائدهم القديمة الآخذة بالازدواج ونزعاتهم إلى الروحانيات ، كانت تمنعهم من أن يعطفوا تمام العطف على الإيمان بالبعث المجسد وبمادية مملكة الله ويوم الانتصار الموعود ، تلك المجالات التى كان التفكير اليهودى يعشق ارتيادها . ولما أصبح الاتباع الجدد من المشركين غالبية بين المؤمنين وصار واضحاً أن التبشير بالمسيحية لن يقدر له النجاح إلا في ديار الوثنية ، تحتم على ماسوف يعرف فيما بعد بـ « عهد الإيمان » ، أن يبرز وينمو مطابقاً لصوات هؤلاء الناس وتطلعاتهم .

ولما كانت نظريات بولس وفروض الإنجيل الرابع شافية لرغباتهم اللاشعورية ، فقد رجح الاعتقاد بأن التركيبات النظرية في إطار المسيحية - تلك التركيبات التي فاقت كثيراً كل ما تصوّره الاثنا عشر في إيمانهم الأول - لن تنفك تنمو وتنضج حتى تحتل أكبر مكانة من العقيدة .

وفي الوقت نفسه أيضاً : تم الانفصال الفعلي بين الكنيسة والمعبّد وأصبح أتباع عيسى يتحدثون عن اليهود بعبارات لاشك في أنها كانت غريبة كل الغرابة عن تعاليم أستاذهم . ولن يلبث هؤلاء الأتباع أن يرفضوا الاعتراف لليهود بأي إدراك للحق وبأي فهم للشريعة الموسوية نفسها^(١) . ولقد طغت الكنائس الكبرى ، التي احتشد فيها قدامى الوثنيين ، على البقية المتبقية من تلك الجماعات الصغيرة الفقيرة التي أسسها الحواريون وأتباعهم اليهود ، والتي لم تضم في غالبيتها سوى أناس يؤمنون بالعبادات اليهودية ، بالشام ، وبمصر ، وبروما أيضاً حسب ما تشير إليه بعض الدلائل .

وكانت هذه الجماعات تجتهد في المحافظة على التعاليم التي تلتقتها من رجال عرفوا « السيد » وصاحبوه ؛ فاتهمت بهزال التفكير فيما يخصه ؛ وأوشك أن يأتي اليوم الذي يرفض أغلب المسيحيين لها فيه حق التطلع إلى قسطها من « الخلاص » . ولقد كتب القديس جوستين : أن المسيحيين الذين يداومون على احترام أحكام اليهودية سوف يصلون في رأيه ، إلى « الخلاص » ، على شريطة أن يحاولوا فرض شعائرهم على الآخرين ، ولكنه أضاف إلى ذلك : أن الكثير

(١) يبدو أن الرسالة المسماة بـ « رسالة باربانا » وهي من المؤلفات التي تهاجم اليهود في عنف ، يبدو أنها كانت ، على أرجح التقديرات ، تكتب ألف بالإسكندرية فيما بين عام ١١٧ وعام ١٣٠ . إلا أن أحد المؤلفين المسيحيين من سوريا كان يصف اليهود قبل ذلك بخمسين عاماً بـ « المنافقين » .

من المؤمنين سوف يستكفون من الاتصال بهؤلاء القوم . والواقع أن المسيحيين اليونانيين الرومانيين أصبحوا لا يشعرون برابط يربطهم ببني إسرائيل ، كما أصبحوا يحملون الشريعة اليهودية معنى رمزياً مجتأ ، برغم تصريح المسيح فيما مضى : بأنه لن يبدل من هذه الشريعة حرفاً .

وفي الوقت نفسه أيضاً بدأت الجماعات المسيحية ، التي انفصلت عن المعابد تماماً ، تنظم صفوفها لتقوى على الحياة ؛ فاختارت بادئ ذي بدء رؤساء زمينين كلفوا بالسهر على مصالحها المادية وعلى استتباب النظام بين رعاياها : في حين راح « الملهمون » من الأعضاء بوحى من الروح القدس يدعمون وينشرون الإيمان . وعندما أحست هذه الروح بالحاجة إلى الاستقرار ، بدأت تتشكك أمر « الملهمين » وما يبدر عنهم من نشاط شخصي ، فبحثت عن السبيل إلى إقامة تنظيم أكثر فاعلية لإدارة « مصالحها » الروحية . ولعل النظام الملكي بين رجال الكنيسة قد نشأ عند انتهاء الجيل الذي اتصل بالحواريين وعرفهم . ويمكن التأكيد ، على أى حال ، بأنه ، عقب هذا الجيل ، كان وشيك القيام .

وبعبارة أخرى ، فإن المسيحية ، في مقتبل القرن الثاني ، تظهر لنا في ثوب دين مستقل ، يدرك أصحابه تماماً انفصاله عن اليهودية ، وإن كانت عناصره لم تزال بعيدة عن الانسجام ، كما لم تخرج طقوسه وتنظيماته عن الطور البدائي . وكانت هذه المسيحية ، منذ ذلك الوقت ، قد ابتعدت كثيراً عن الأفكار التي جاء بها عيسى والحواريون ، وأصبحت تتجه إلى بني الإنسان جميعاً دون تفرقة بين الأجناس أو الطبقات الاجتماعية ، لتدعوهم إلى حياة الخلود .

(ب)

عرفنا فيما سبق من الفصول أن العالم اليونانى الرومانى ، خلال الفترة التى انتقلت فيها إليه آمال المسيحية ، لم يكن صحراء فكرية وعقائدية قاحلة ؛ بل كان يحمل فى رحابه نوعاً من التفكير الدينى . وقد لا يكون هذا التفكير الدينى فى الواقع متكاملًا - إذ تعلق ، حسب كل فرد ، بموضوعات مختلفة ؛ أو حاول ، على العكس من ذلك ، أن يؤلف بين موضوعات غير متشابهة - إلا أنه كان برغم هذا ، تفكيراً لا يقبل أن يتلاشى دون رد فعل . وكان يعتمد لدى الطبقات الجاهلية - التى كثيراً ما تخلطه بالسحر - على مجموعة كبيرة من العادات والآراء المتوارثة التى يكاد يستحيل القضاء عليها . أما لدى الطبقات المستنيرة ، فكان عاده أيضاً ثبات التقاليد ، بالإضافة إلى التربية الفكرية المعتادة . ففى كل ربوع الإمبراطورية كانت المدارس تبتث فى الأطفال روحاً متسقة ، وكانت تعلمهم أساليب منطقية متشابهة وتدعوهم إلى معين ثقافى واحد ، يستظم تفكيرهم الدينى بالضرورة طبقاً لمقتضياته . وبرز من الآن عامل أساسى فى المسألة ، هو : أن ثقافة هذا العصر كانت مقصورة ، أو تكاد ، على المجال الأدبى . فقد كان أمام الفتى طالب العلم طريقان لإتمام دراساته : الأول منها منهج البلاغة التى لا يتعلم به سوى فن ترتيب الأفكار والكلمات ؛ والثانية الفلسفة ، التى تريد أن تكشف له أسرار العالم وأن تعطيه تفسيراً للحياة ثم تؤسس لديه مبادئ وأحكام الأخلاق ولم تكن الفلسفة تعتمد فى كل ذلك على أى من العلوم العملية : فالترعة إلى البرهان التجريبي ، التى ألفتها الفكر العبرى اليونانى قديماً ، كانت قد أضيعت وانتهى أمرها ؛ وشاعت بين الناس خرافات

لا يحصى عددها ، رددوها على أنها حقائق ، برغم تهافتها أمام التحليل السليم . لذلك لم يكن علم الطبيعة يعتمد في هذا الزمن إلا على نوع من الاستقراء الذى لا أساس له ، وعلى نظريات يدعى أصحابها أنها عملية ، وإن كانت لا تمت إلى العلم إلا ظاهرياً . لذلك فإن الفلسفة ، برغم خصوصيتها في المجال الأخلاقي الذى أظهر فيه الكثيرون حكمة وبراعة وبلاغة كبيرة ، نراها تشتت بين مذاهب ميتافيزيقية عديدة ، قد تهمنا بوصفها تركيبات فكرية ، ولكنها تبقى بعد ذلك مذاهب تحكيمية بحتة لأنها غير مؤسسة على الواقع . وعلى أى حال ، فقد أنشئت هذه المذاهب منذ زمن بعيد بفضل مفكرى الإغريق ، ثم تطورت في العصر الذى نتحدث عنه حتى لم تعد غير « موضوعات » يطرقها الأساتذة ويغيرون فيها ويبدلون ، كل حسب اتجاهات شخصيته الفكرية . ولما كانت هذه الموضوعات غريبة تماماً عن العلوم الوضعية ، سهل تطويعها وحشوها بإضافات لا تمت بصلة إلى مذاهب أصحابها الأول : هكذا مثلاً كان فيلون قد جمع بينها وبين الفروض الأساسية للشريعة اليهودية ؛ وهكذا استنبط منها فلاسفة الأفلاطونية الحديثة نوعاً من الأديان المهمة ؛ وهكذا أيضاً أدخلها علماء الإسكندرية المسيحيون في إطار مفاهيم إيمانهم ، فخرجت من هذا الخليط عقائدية جديدة . وفي حد ذاتها ، لم تكن الموضوعات المذكورة لتستطيع مقاومة أمام مثل هذه النزعات ، إلا أنها ، من ناحية أخرى كانت ضربت بجذورها في أذهان المثقفين وتقبلها الناس جميعاً ، حتى العامة منهم ، باعتبارها حقائق لا ممرارة فيها ؛ فصار من المحتم أن يحسب حسابها في كل تفسير للعالم والحياة ومصير البشرية ، وفي كل دين يقوم بالبلاد .

ولنلاحظ ، بالإضافة إلى ذلك ، أن المسيحية أدخلت في العالم اليوناني

الرومانى خلال القرن الأول ، فلم تثبت به وتمكن إلا فى القرن الثانى ، ثم لم تنتشر كل الانتشار إلا فى القرن الثالث . وإن ما نسميه اليوم بـ « روح الشعب » وبـ « رأى العام » ، لم يبق على موقف واحد ، خلال هذه القرون الثلاثة ، تجاه المسائل الخاصة بالفلسفة والدين . حقيقة أن موقف الطبقات الممتازة ظلّ مختلفاً عن موقف الطبقات الدنيا ، ولكننا نستطيع القول بأن عند كل من الطائفتين كان يتغير بمرور السنين . وإذا ما كانت المسيحية قد انتشرت كل هذا الانتشار فى القرن الثالث ، فذلك لأن التغير تم وفقاً لمصالحها .

وفى العهد الذى حلت فيه الإمبراطورية محل الجمهورية كانت الديانة الرسمية اليونانية - الرومانية قد تطورت إلى نوع من التأليف الدينى ، إلى نوع من التوفيق - تم على أعقاب احتلال الرومان للشرق الإغريق - بين آلهة المتصرين وآلهة المغلوبين . ولم يكن المثقفون من الناس يؤمنون بها ، وإن أظهروا احترامهم لها فى المجالات العامة ، ولم يستنكفوا من المشاركة فى طقوسها عندما تقتضى الظروف مشاركتهم ؛ ذلك أنهم آمنوا بضرورتها بالنسبة إلى عامة الشعب الذى يحتاج إلى ضابط لأطباعه ولغرائزه الفطرية الخطرة ؛ وأنهم لم يتناسوا أن دولتهم القديمة قامت على أطراف منها فى قديم الزمن ، وأن أجدادهم اعتمدوا عليها فى كفاحهم المتصل ، ثم لأن هذه الديانة لما تمتاز به من صفات رومانية خاصة - هى الرابطة الملموسة بين أهل المدينة الكبرى روما . وكانت نزعتهم المتفاوتة من العمق إلى الشك تدفعهم نحو مذاهب المدارس الفلسفية المختلفة ، يطلبون منها ، كل حسب حاجته الشخصية ، الغذاء المينافيزيقي الذى لا يستطيعون عنه غنى . وذهبت غالبيتهم فى اتجاهاتها نحو المدارس الرواقية أو الأبيقورية . أما الطبقات الدنيا من الناس فقد ظلّ أفرادها على تقديسهم لصغار الآلهة وللسحرة .

وبينا الأمر كذلك ، إذا بالديانات ذات الأسرار ، النازعة إلى التصوف والحسيات ، والتي كانت قد أتت من الشرق وضربت بجذورها في أرجاء الإمبراطورية ، إذا بها تنتشر شيئاً فشيئاً وتجد الأعداد المتكاثرة من الأتباع . وقد وضع الإمبراطور أغسطس مخططاً لإصلاح الدولة ضمنه قسماً يهدف إلى الإحياء الكامل الشامل للديانة الرومانية . ولكنه في عمله هذا إنما كان يتيه في دروب غريبة من الخيال ، إذ ظن أنه يستطيع إجبار الناس على تقييد عاطفتهم الدينية - إن كانوا من ذوى العاطفة الدينية - في الحدود التي رسمت لها في الماضي البعيد ، أو أنه يستطيع إعادة الإيمان إلى صدور الذين فقدوه . ومهما يكن من أمر تفكيره هذا ، فهو لم ينجح في استعادة الصورة الكاملة لما كان عليه الحال إلا فيما يخص بالشعائر والمعابد ؛ ولذلك كانت النتيجة الكبرى لعمله هي دعم معنى القومية المتمثل في الشعائر الرسمية ، أصبحت الوطنية ، كما أصبح الإخلاص للحكم ، يفترضان التعبد لاسم أغسطس والآلهة روما .

كانت هذه الديانة مقصورة على بعض الاحتفالات ، وخالية تماماً من كل فقه لاهوتى ومن كل عقيدة حقيقية ؛ كذلك لم تكن لتزعم بعث شىء من الحياة في عاطفة دينية أياً ما كانت . بيد أن العاطفة الدينية عادت لتحتل في الضمير الإغريق - الرومان مكاناً يزداد اتساعاً بمرور الأيام ؛ وكان ذلك تحت تأثير نفحات أتت من الشرق ومهد لها الافتقار إلى العلوم الوضعية ، وألوان من المحن مرَّ بها القوم من عهد « تيربوس » إلى عهد « نرفا » ، وزعزعت من نفوسهم ، ولم تستطع الرواقية أمامها إلا حاية فئة طليعية محدودة العدد . ونمت هذه العاطفة وأصبحت لها متطلبات أخذت في الازدياد . وطفى التحمس المتجه إلى حياة دينية عميقة - حتى بين الطبقات المستنيرة - على تيارات الشك ،

ونراجعت الرواقية في سزعة سريعة أمام الأفلاطونية ، التي فاقتها في المرونة وفي القابلية للتشيع بالعاطفة الدينية .

وإذا كان من المبالغ فيه القول بأن مارك أوريل كان آخر الرواقين ، فمن الثابت لدينا أن السنين الأخيرة من حكمه هي الحد الذي بدأ بعد التدهور التام الذي أصاب الرواقية ، تلك الفلسفة التي وصل بها الإمبراطور النجيب إلى منتهى إشراقها . وكان العالم الوثني بعد ذلك ناضجاً تمام النضوج للتقوى . وقد ساعد على نمو تياراتها في سرعة سريعة ما رأيناه ، مع ظهور أباطرة عائلة سيفير ، من تولى أمراء أفريقيا والشام للحكم ، ثم من سيطرة نساء أشرين بالروح الصوفية الشرقية . وقرن الثالث بسائر مظاهر هذه التقوى : من أكثرها بدائية - تلك المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بالسحر - إلى أرقاها في مدارك الإنسان ، صاغتها التأملات الفلسفية التي أصبحت تنشد الإله . وكان دين الدولة ، في الصورة التي عرفت بها العصور القديمة كلها ، مقصوراً على عبادة الإمبراطور ، وذلك بعد توحيد جميع القوميات تحت سيطرة روما ، وانصببت سائر العواطف الدينية الحية ، بالتالي ، على فكرة خلاص الإنسان . وهكذا أصبح لكل العقائد والعبادات أتباع يطوعونها لصوتهم العام إلى مستقبل كله سعادة خالدة في عالم آخر خفي ، وراح كل فرد يتقواه الخاصة يستنبط لنفسه ، من هذه المادة الدينية الضخمة ، أشكالاً من الدين توافق طبعه ، ويلجأ في سبيل إنشاء عقيدته وحياته الدينية العملية إلى التأليف بين نزعات للإيمان وصور للطقوس تختلف منابعها .

ولقد ظهرت المسيحية ، منذ القرن الأول ، في ثوب الديانة الشرقية الجامعة بين الروحانيات وبين الشعائر العملية ، إذ كانت تعتمد من ناحية على الإلهام

الإلهي وعلى الوعد بـ « الخلاص » والخلود عن طريق شفيع أعظم ، وتسمى من ناحية أخرى إلى إنشاء « حياة » جديدة على الأرض ، حياة كلها حب وفضيلة . فكان من المرجح إذن أن نجد قبولاً لدى هؤلاء القوم الذين يتطلعون إلى نفس الآمال التي جاءت بها . غير أن ما رآه الناس من تمسك المسيحية بعقيدة لا تميل إلى مزجها بما يحيط بها من عقائد كان من شأنه في البدء أن يعرقل من انتشارها قبل أن يؤدي في النهاية إلى ضمان ومساعدة هذا الانتشار . فقد أبدت المسيحية إحجاماً ظاهرياً عن كل ما من شأنه التآليف بينها وبين الأديان الأخرى . إلا أنها كانت لا تزال غاية في البساطة فيما يتعلق بالعقيدة والشعائر ؛ أى : كانت لا تزال غاية في المرونة الفنية ، بحيث تستطيع استقبال التزعات الدينية والشعائر المنتشرة انتشاراً واسعاً التي تلاقيها في العالم اليوناني - الروماني فتدججها في عقيدتها وشعائرها ، ويكاد ذلك يكون دون إدراك منها . وإنما لنعن في هذا السبيل ، فنقول : إن المسيحية لم تكن تستطيع مدافعة أمام هذه التزعات والشعائر السائدة . وإذا كانت قد انتصرت في القرن الثالث على سائر ألوان « التآليف » الدينية الوثنية فذلك لأنها كانت قد تطورت هي الأخرى إلى تآليف ديني تجتمع فيه سائر العقائد الخصبه والشعائر الجوهرية النابعة من العاطفة الدينية الوثنية قامت هي بترتيبها وتركيبها وأضفت عليها الانسجام الذي تفتقر إليه بحيث استطاعت أن تقف ، بمفردها ، أمام أشد المعتقدات والشعائر التي يؤمن بها أعداؤها دون أن تظهر ضعفاً أو نقصاً عليها في أى من المجالات الهامة .

ونمت ظاهرة التشرب هذه - وهي من الظواهر الأساسية في تاريخ المسيحية - في ببطء وبطء ، معتمدة على الاتصال الدائب بتطور الإيمان بين جميع طبقات المجتمع الوثني ، ذلك المجتمع الذي اختلفت فيه صور الإيمان

باختلاف بيئاته وباختلاف العهود التي مر بها ، كما بينا فيما سبق من حديثنا . وإنها الظاهرة تفسر لنا كيف جاء العصر الذي استطاعت فيه المسيحية أن تكسب عطفاً نشيطاً بين رحاب العالم اليوناني الروماني . ولسوف يأخذ الإيمان المسيحي بعضاً من روح كل طبقة من طبقات المجتمع ، ولسوف يدين لها كمجموعة بالتدرج الهرمي الذي نجده حتى اليوم في الواقع بين صفوف أعضاء الكنيسة ، ذلك اللون من التدرج الذي لوحظ منذ بدأ الدين المسيحي يتظم تدريجاً يبدأ من « إيمان العجائز » البسيط الساذج ، وينتهي إلى إيمان المفكرين الفلسفي ، في عملية تصاعدية بطيئة ، بل تكاد تكون غير ملحوظة .

كان دعاة المسيحية الأول أناساً من صغار القوم ، فاتهموا بادئ الأمر إلى أمثالهم من طبقات المجتمع الدنيا . والواقع أن عقيدتهم - وهي الداعية إلى الصبر والمساواة والتآخي - لم تكن لتحظى بأكبر قسط من القبول المطلق إلا لدى هذه الطبقات . ولكن علينا ألا نغالي في الادعاء : فقد بشر بولس وأتباعه بالمسيحية في أوساط المريدين لليهودية ، ولم يكونوا جميعاً من الطبقات الدنيا ، بل عد في صفوفهم نساء من علية القوم ، ولانشك أنه قد انضم إليهم أيضاً رجال من ذوى النفوذ والثراء ، والكثير من الدلائل يشير إلى أن بعضهم آمن واعتنق المسيحية . غير أنه من الثابت لدينا أن النبلاء من النامس أو ذوى الشأن بينهم لم يشكلوا قط سوى أقلية قليلة في إطار الكنيسة ، وذلك حتى عهد الأباطرة من أسرة أنطونيوس . أما العبيد والعمال فكانوا « الرصيد » الأكبر لها . ولما كان كل مسيحي جديد في هذا العصر يعدّ وحدة جديدة في قائمة المبشرين بها ، ظلت المسيحية على رواجها بين صغار الناس خاصة . ولكنها بدأت أيضاً - عن طريق العبيد والإماء - تنتشر بين المعتقدات من النساء وربات

البيوت ، بل وجدت في بعض الأحيان اهتماماً من طوائف الرجال المثقفين في بحثهم عن الحقيقة الإلهية . وبفضل النساء تسربت المسيحية إلى الطبقات الممتازة من المجتمع ، وبفضل المفكرين الذين اهتموا بها وجدت خلال القرن الثاني ثغرة للاتصال بالفلسفة ، وكانت لهذا اللقاء نتائج بالغة المدى : كان رجال من أمثال « تاتيان » أو « جوستان » أو « ترطوليان » يقدون إلى المسيحية لأن تحولهم إليها صار نهاية حتمية لأزمات داخلية ؛ كانوا يحملون بين جوانحهم رغبات وتساؤلات لم تكفهم عنها الفلسفة ، في حين كانت المسيحية تشبع الرغبات وتحيب عن التساؤلات . أما وقد أصبحوا مسيحيين ، فلم يكونوا يستطيعوا التجرد مما تلقوه من تربية ، ومما درجوا عليه من عادات فكرية ومن أساليب منطقية ، ثم من تراث ثقافي وفلسفي تجمع لديهم ، مها زعموا من التنكر لكل ماضى حياة فكرهم . وسواء أدركوا الأمر تمام الإدراك أو شعروا به شعوراً غامضاً فحسب ، فإنهم ولاشك رأوا وجوه نقص في الدين الذى تبناه ، وجوه نقص لافى مبادئه - فقد اعتبروها عميقة عمق اللانهاية - ولكن في صور التعبير عن هذه المبادئ ، لذلك نزعوا - عندما أرادوا بدورهم الحديث عن هذا الدين - إلى إظهاره في إطار فلسفة إلهامية ، ولم يستطيعوا في نزعهم تحكماً . ولذلك أيضاً راحوا يحشون تبريراته بكل ما أوتوا من الأساليب المدرسية ويدفعون في العقائد بل التأملات والتفسيرات التى أوحى بها إليهم ، فيما مضى ، تفكيرهم الميتافيزيقي في وقفته أمام المسيحية .

ومها يمكن من تفتح آفاقها ومن مرونتها التى اكتسبتها بفضل التفكير البوليني واليوحاني ، فالمسيحية التابعة من الجيل الذى تلا الحواريين لم تقدر مثل هذه التأثيرات ، ولم تدبر الوسيلة لتحليلها وللتحكم فيها ، بسبب ما كانت عليه من

تردد وقلق في مجال العقائد . فاجتمعت عليها هذه التأثيرات بادئ ذي بدء في
عنف وفي غموض لاحت لهما ؛ ولم تشعر جماهير المؤمنين - وهي البطيئة دائماً في
إدراك حقيقة الأمور - لم تشعر إلا بعد حين أنها كانت تدفع بالإيمان في اتجاهين
مختلفين كل الاختلاف .

(ج)

أما الاتجاه الأول فيتزع إلى الثقافة اليونانية ليستعير منها كل المفاهيم التي من
شأنها زيادة للمسيحية الأولى عمقاً وجمالاً .

ولم يكن أصحاب هذه الاتجاه ، في تطويعهم لتلك المفاهيم ، حذرين كل
الحذر ؛ ولم يتفق عملهم دائماً مع النصوص أو المنطق وواقع الأحداث ؛ إلا
أن نيتهم ، على الأقل ، كانت مطمئنة : إذ لم يطلبوا سوى إخضاع أهم أحكام
التفكير اليوناني إلى مقتضيات فروضهم . وإذا كان الأمر قد انتهى إلى تطوير
وتغيير المفاهيم والفروض على حد سواء حتى أصبحت شيئاً آخر غير ما كانت عليه
فالعزاء يكمن في أن التطور حدث ببطء شديد ، ولم يستثر لدى الناس دهشة
أو تأقفاً ، بل طبقاً للرغبات الواضحة أو اللاشعورية لدى جماهير المؤمنين .

ولو جاء النبا إلى الاثنى عشر بأن عيسى قد تمثل فيه الله لما فهموه بادئ ذي
بدء ، ثم لتصايحوا بالفضيحة والرذيلة الممقوتة . ولكن المرجح أنهم لم يعارضوا
قول بولس بأن عيسى كان « إنساناً سماوياً » وأنه تمثلت فيه « روح الله » . فكان
ذلك بداية للإضافات التي تطلع إليها إيمان المؤمنين بإلحاح ، والتي انتهت في
تدرجها - بعد التقريب بين الله والمسيح - إلى التوحيد التام بينهما . ولم تسر هذه
الترعة - التي خرجت منها الأرثوذكسية - في خط مستمر واضح ، بل كثيراً

ما ترددت وكثيراً ما ضلت طريقها بين النظريات التي لم يقبلها الإيمان الجماعي ،
وكثيراً ما قامت أمامها الصعوبات الجمة في بحثها عن الفكرة الملائمة أو التعبير
المناسب ؛ ولكنها - وهذا هو جوهر المسألة - لم تحاول قط ، بسبق إصرار
وإدراك ، أن تؤلف بين الأفكار الوثنية ، أيا كانت ، وبين فروض المسيحية ؛
أو إذا شئنا التعبير بصورة أخرى : فهي في اختيارها وتنظيمها للإضافات التي
استعارتها من الثقافة اليونانية إنما اختارت ونظمت طبقاً لمقتضيات الفروض
المسيحية ، ولم نرم منها خروجاً عن تلك الحدود ، حتى بين رحاب المدرسة
البدعية التي قامت بالإسكندرية وكان أوريجين علمها الأعظم ، تلك المدرسة
التي أتمت العمل الكبير : ألا وهو تطوير المسيحية إلى فلسفة ملهمة وكاملة .
أما الاتجاه الآخر الذي عرفته المسيحية منذ القرن الثاني أو قبله ، فهو ينبع
من مبدأ مختلف : إنه أيضاً يريد أن يتسامى بالأفكار البسيطة الأولى وأن يوسع
من أبعادها ؛ ولم يستطع إلى ذلك سبيلاً إلا بتركيب هذه الأفكار مع معتقدات
أو نظريات مستعارة من البيئة المحيطة . ولكنه منذ البدء لم يتبع أى حدود في
اختياراته ، فراح يجمع بين موضوعات متعددة ومتباينة أشد التباين : من الوثنية
الأولمبية ، والأورفية ، والديانات المختلفة ، إلى المذاهب الفلسفية ؛ وكان كل
شئ غذاء دسماً له ؛ ثم إنه ، من ناحية أخرى ، لم يكن يهتم بالتوفيق بين
ما يستعيره وبين معطيات التاريخ أو - على الأقل - معطيات الإيمان المعروفة .
فهو اتجاه يريد أن يكون صاحب إلهام خاص يبرر به أبشع التركيبات التي
يقدمها ، تلك التركيبات التي بدت في صورة مذاهب تأليفية كاملة ، لا نلمح
فيها المسيحية إلا كعنصر قد تغير تغيراً هائلاً ، من بين عناصر فلسفة كونية معقدة
وميتافيزيقا عسيرة الإدراك ، وليس بينه وبين هذه الفلسفة أو تلك الميتافيزيقا

صلة تذكر. ومن الطبيعي أن هذه الألوان المختلفة من « الغنوصية » التي ازدهرت في القرن الثاني ، لم يطمئن إليها السذج البسطاء ، ولم يكن مقدراً لها البقاء برغم تحول الكثير من تغريم تركيبات ميتافيزيقا الصوفية والرمزية . ومع ذلك كانت مطابقة لمنطق التطور المسيحي ؛ ونعني بذلك أنها تعرض علينا وجهاً من وجوه ذلك التطور ، يتجاوب مع ما عرفناه من روح العصر الذي نشأت فيه ويساعد على إيضاح جوانبه لنا .

وإن ظهور ألوان « الغنوصية » هذه لأمر بالغ الأهمية ، مثله في ذلك مثل ظهور البدع المختلفة التي يصارعها الإيمان قبل أن يصل إلى مستقر له ، والتي يمكن اعتبارها في غالب الأحيان ، آراء سيئة الحظ وإن كانت لا تنقل في الإغراب و « البدعة » عن الآراء التي فرضت أو فرضت نفسها . وكان من نتيجة الجدل العنيف الذي ثار حول كل هذه المسائل : أن ثبتت شيئاً فشيئاً سائر أركان العقيدة المسيحية ، وأتاح للمؤمنين سبيلاً إلى التأمل في نزعاتهم الفكرية أو العاطفية الخاصة وتحديد اتجاهاتها ؛ كذلك عرف بالمشاكل ، وأبرز الخلافات التي وكل إلى علماء اللاهوت حلها ، وكان له فضل آخر يفوق كل هذا في الأهمية ، ألا وهو تأكيد رغبة الناس الملحة التي تدعمها الضرورة لإيجاد « تنظيم للإيمان » ، أي « قانون » ، ثم « سلطة » تمثل القانون وتحميه . وعلى هذا ، يمكن اعتبار الجدل المذكور ، أنشط العوامل في تنظيم الكنيسة والسلطات الكنسية التي أنشئت خلال القرن الثاني . وهناك عامل آخر يجب البحث عنه في تأثير البيئة اليونانية الرومانية على المسيحية الأولى ؛ وهو تأثير نزع إلى إدخال الطقوس الوثنية ، بعضها أوجمعيها ، في عبادة كلها « روح وحق » بعد أن هجر أصحابها المعابد اليهودية . ونمت الشعائر في المسيحية بالتوازي مع

العقيدة وبنفس الأساليب ، فبدأت بتلك العادات الأولى المبسطة الوافدة من اليهودية : التعميد ، كسرة الخبز ، وضع الأيدي على الرأس ، الصلاة ؛ الصيام ؛ وحملت هذه العادات معاني لم تنفك تزداد عمقاً و« سرية » ، ونمت وأضيفت إليها حركات شائعة لدى الوثنيين ، ثم قرنت بالمفاهيم المتسعة الأبعاد التي كانت تدخل مثلاً في طقوس « الأسرار » اليونانية والشرقية ، ونفخ فيها - إذا سمح لنا باستخدام هذا التعبير - بتلك القوة الرهيبة التي كانت للسحر قديماً . وبدأ هذا التفاعل منذ انتقال إيمان الحواريين من فلسطين إلى العالم اليوناني ، وقد لاقيناه وهو في طور متقدم لدى بولس وأتباعه ؛ ثم واصل تأثيره طوال تلك الفترة التي كان الدين الجديد يكافح فيها ضد منافسيه من الأديان .

ولعله من العسير أحياناً أن نرجع في كل تأكيد لوناً من ألوان الطقوس المسيحية إلى الأصل الوثني الذي نبع منه . إلا أنه لا مجال للشك في أن الروح الوثنية ، فيما يختص بمظاهر العبادة العملية ، قد فرضت على المسيحية شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحنا نجد لها كاملة في احتفالاتها . وزاد التقارب بشكل ملحوظ منذ القرن الرابع ، عندما دعت الضرورة إلى القضاء على بعض التقاليد القديمة الصلبة . وكانت سلطة رجال الكنيسة ، من ناحية أخرى ، تعمل على دعم ذلك الحق الذي اكتسبته منذ فترة طويلة والذي انتهت إلى التفرد به برغم بعض التردد ، ألا وهو : التصرف في القوة السحرية للطقوس التي سميت بـ « الأسرار القدسية »

إذا تأملنا الكنيسة المسيحية في مقبل القرن الرابع ، فإنه يتعذر علينا أن نجد صورة من صور مجتمع الخواريين ، أو - إذا أردنا الحق - يستحيل علينا ذلك فبدلاً من جماعة محدودة من اليهود لا يفرق بينهم وبين باقي أمتهم سوى أمل خاص وترحيب بالمتلمذين عليهم من الوثنيين يفوق ترحيب اليهود عامة ، بدلاً من ذلك : نجد مجتمعاً دينياً واسع النطاق يدخل فيه - دون تمييز لجنس أو لطبقة معينة - كل من يرى في نفسه القدرة الكافية ؛ مجتمعاً يدرك تماماً أنه يشكل وحدة متكاملة ، وأنه هو الأمة المختارة ، أى : كنيسة المسيح . وتكررت الكنيسة الجديدة لشعب إسرائيل وشاع فيها القول بأن هذا الشعب قد خرج عن سبيل الله وتاه بعيداً عن الحق ، حقيراً محقرأ . كما وجدت الوسيلة الناجمة للتخلص من الشعائر العملية التي تفرضها الشريعة اليهودية مع الاحتفاظ بـ « العهد القديم » كتاباً مقدساً^(١) . وعلى أساس من المبادئ الجوهرية لإيمان بني إسرائيل ، أنشأت هذه الكنيسة مجموعة عقائدية جديدة بالغة التعقيد ، اعتمدت في صلبها على شخصية المسيح التي نمت من حولها النظريات حتى تم توحيدها بالله ، واستقت عناصرها من التأملات الخاصة المتغالية في تفسير معطيات الإيمان الأولى ، ثم من المذاهب الفلسفية والدينية التي وجدت في البيئة

(١) يبدو أنه كان من مصلحة المسيحية التخلص أيضاً من الشريعة اليهودية ، وقد سعى بعض ذوى النفوذ من المسيحيين - مثل مارسيون - إلى ذلك . ولكنهم لم يوفقوا في مساعهم ، لأن المسيحية الأولى اعتمدت دائماً في تبريراتها على نصوص التوراة التي اعتبرت نصوصاً متزلة على الأنبياء ، فقوى ذلك من قدمية الكتاب لدى اليهود - المسيحيين وثبت من صفته الإلهية .

اليونانية الرومانية . وقد خرجت هذه المجموعة العقائدية على الناس في صورة « ماسمي بـ » شروط الإيمان « التي أقامها المختصون من ذوى السلطة بناء على الآراء الغالبة ، وأريد لها أن تكون - مثلها في ذلك مثل الفلسفة الملهمة الكاملة - تفسيراً « ثابتاً » للعالم وللحياة ولمصير الإنسان ، أخذ علماء اللاهوت يعملون في حماس على توسع أبعادها ومفاهيمها وعلى ترتيبها في انسجام وتكامل .

ومن ناحية أخرى ظهرت لنا الكنيسة على أنها هيئة منظمة . فلقد انتظمت شيئاً فشيئاً في كنائس خاصة على غرار المعابد اليهودية أو الجماعات الوثنية ؛ الذين اعتاد قاداتهم التشاور في كل الأمور الخاصة بالإيمان والآداب العامة والنظام ، وأن يعبروا عن رأى الأغلبية في قرارات جماعية . ويشرف هذا الإكليروس على طقوس أخذت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن اليهودية أو عن « الأسرار » الوثنية ، ولكنها ألبست ثياب المسيحية ، وحملت - أو حمل الأهم منها على الأقل - بتلك القوة السحرية الخفية التي كان يراها رجال هذا العصر في العبادات السرية ، سواء منها اليونانية أو الشرقية . وبعبارة أخرى : أصبحت المسيحية ديناً حقيقياً ، بل أكمل الأديان إذ ذاك لأنها تبنت من كل دين خير ما وجدته لديه . وكانت أيضاً أكثر الأديان ترحيباً بالوافدين إليها ، وأكثرها إيماء بالصبر والسلوى ؛ ثم أيضاً : أكثرها قرباً من الخصائص الفطرية للإنسان ، بحيث يجد البسطاء من القوم أنفسهم مندفعين إلى الإيمان بها وإن لم يدركوا مفاهيمها وإلى إطاعة ذوى السلطة في تنظيمها وإن لم يحاجوهم في الرأى ، وذلك حتى يضمّنوا الخلاص والخلود ؛ كما يجد الفيلسوف في عقائدها مادة لا تنتهى للتأمل والتفكير .

ومع كل ما امتاز به هذا الدين من تيارات تأليفية عميقة ، فإننا نرى لديه

تعصباً قوياً عنيفاً ، تعصباً لا يقهر : فهو لا يقبل مشاركة أتباعه في دين آخر بأية صورة من الصور ، وهو لا يقبل أية مناقسة . وأدت هذه التزعة الجوهريّة في طبيعته إلى إقامة عقبات بالغة الخطورة أمامه ، ونخص منها بالذكر عداوة الحكام والمجتمع المدني كله ؛ ولكنها انتهت أخيراً إلى تثبيت أقدامه وضمان انتصاره .

وقبل أن نحاول تفهم الصراع بين المسيحية وبين الحكام والمجتمع ، ذلك الصراع الحاسم في طبيعته ونموه وأبعاده ونتائجه ، يجب علينا أن نحلل عن كثب وأن ندرس في مجال الواقع ظاهرتين أساسيتين عرضناهما فيما سبق عرضاً مبدئياً ، وهما أن دين المسيح - ونعني به الدين الذي يتخذ المسيح إلهاً خاصاً به - هذا الدين ، عندما انتظم في الدنيا ، نبعت منه « الكنيسة المسيحية » . ثم إنه إلى جانب هذا ، قد تطور فأصبح « مجموعة عقائدية » و « مذهباً للعقيدة » ، بعد أن كان في بدايته « أسلوب حياة » .